محمد سعيد الريحاني

في انتظار الصباح

مجموعة قصصية

“Waiting for the Morning”

(Collection of short Stories)

By

Mohamed Saïd Raïhani

(Arabic Version)

2003

عنوان الكتاب : **"في انتظار الصباح"**
نوع الكتاب : مجموعة قصصية
الكاتب : محمد سعيد الريحاني
الطبعة: الأولى، 2003
الناشر: محمد سعيد الريحاني
رقم الإيداع: **2003/1603**
المطبعة: السليكي إخوان، طنجة / المغرب

تصدير أول:

"إنه عملية انتظار لا تنتهي ولكنها تبدو من جديد بشكل خفي كل يوم. وإذا كان الانتظار ينطوي على حركة فهي حركة دائرية، إن كل يوم عود إلى اليوم السابق. لا شيء يكمل لأن ما من شيء يمكن إكماله".

د.نعيم عطية
مسرح العبث : مفهومه، جذوره، أعلامه
ص 68

تصدير ثان :

"الكل يذهب والكل يرجع وعجلة الكون تدور إلى الأبد. كل شيء يموت وكل شيء يعود فتنور أزهاره ودوائر الوجود لا انتهاء لها.
تتحطم الأشياء فتتبدد ثم تعود فتلتئم لتجديد بناء الوجود يتفرق الشمل على وداع فإذا بعده تسليم، فحلقة الكون أمينة لذاتها إلى الأبد.
إن الوجود يبدأ في لحظة فعلى محور "هنا" تنفتح دوائر الأجواء "هنالك" فالمحور مرتكز فئ كل مكان وطريق الأبدية كله تعاريج".

فريدريك نيتشه
هكذا تكلم زارادشت
الترجمة العربية
ص. 249

النصوص

العيد

"إنني لا أحب أعيادكم، إذ رأيتها مليئة بالممثلين، ورأيت المتفرجين أبرع منهم تمثيلا".

فريدريك نيتشه ،
هكذا تكلم زرادشت
(الترجمة العربية) ص. 87

تاريخ اليوم على الأجندة الحائطية مؤطر بالأحمر.

هل اليوم عيد ؟ !

أصبحت أنسى أيام الأعياد فلا أتذكرها إلا صدفة عند تسكعي في شارع المدينة الرئيسي حيث تعبث الأضواء الموسمية بسحنات رواد المقاهي المظللة برايات بالية ولافتات مكمشة توارت أغلب الحروف المكتوبة عليها...

نفس علامات العيد التي تتكرر منذ الأزل. لكنني أذكر أنني، طفلا، لم أكن أجهل تواريخ الأعياد لهذا الحد.لم أكن أترك للافتات فرصة مفاجأتي. بل لم أكن أنام ليلة العيد : أسهر أمام الساعة الحائطية منتظرا شروق العيد لأرتدي ملابسي الجديدة وأكتري دراجة هوائية أسابق بها أصحابي و... لا أذكر كيف كان النوم والحلم يحتالان على فيلبساني أزهى القمصان ويوقعان عليها أعذب العبارات. رفقائي يتهجؤون العبارة على صدر قميصي مبتهجين :

" مثل طائر "

بهجتهم تغمرني ... أجري ... أرفرف ... مثل طائر ... أطلق ذراعي الصغيرتين لأطير ... أحاكي الطائر فوقي وهو يسبح في زرقة السماء دون خفق جناح ... يعلو ... أعلو ... يعلو ... أعلو ...لكن رفقائي كانوا يفسدون علي الطيران. يفترسون إبطي ويتسلون بهستيريا الضحك والركل التي ينالونها مني فلا أتخلص منهم إلا بظهور الطائر القادم من الأفق حيث ينصرفون لاستقباله بالغناء والتصفيق :

اشطح، اشطح بوعميرة
انعطيك الزيت والخميرة

فينزل الطائر حتى مستوى سطوح المنازل المتكئة على بعضها البعض : يرقص كلما غنينا، ويبتعد كلما توقفنا لكنه يعود ثانية وثالثة متى عاد الغناء، رقاصا خفاقا بجناحيه لقاء الأغاني والوعود...

اشطح، اشطح بو عميرة
انعطيك الزيت والخميرة

كان الطائر يطل علينا كل صبيحة عيد فيظل يحوم عاليا بانتظار خروجنا إلى الحي ليشاركنا العيد والرقص والغناء، لكنه اختفى مع مر الأيام :

ربما لأن الناس هنا شاخت

ربما لأن طيور العيد انقرضت

أو ربما كان الأمر من أوله مجرد وهم من أوهام الطفولة...

أقلب الآن أوراق الأجندة المهترئة برطوبة المكان بحثا عن أرقام حمراء وتواريخ أعياد مقبلة.

أقلب الورقة تلو الأخرى.

أقلب. أقلب. أقلب ...

لا شيء.

اليوم، إذن، كان آخر الأعياد.

سنة 1994

المقص

ألبسوني بردة شفافة
يوم الختان.
ثم كان
بدء تاريخ الهوان
شفت البردة عن سري،
وفي بضع ثوان
ذبحوا سري.
وسال الدم في حجري
فقام الصوت في كل مكان
ألف مبروك:
وعقبى للسان!

أحمد مطر
الختان

النصيحة :

... إذن، اسمعني جيدا. فتجربتي الطويلة مع المرض والعمليات الجراحية وشروحات الأطباء علمتني الشيء الكثير عن أسرار الجسد. فالناس جميعا لهم دودة زائدة، لكنها لا تؤذيهم جميعا...

واعلم أنها إذا آذتهم حذفوها بمقص الطبيب دون كبير عناء لأنها عضو جسدي قديم لم تعد له وظيفة حاليا...

واصغ جيدا. فأنا أعرف سر قلقك وغربتك بيننا، نحن أبناء بلدك : إنك تحتفظ بسلوكات قديمة لم تعد لها وظيفة حاليا...

دعني أخلصك من مأزقك، وافتح لي أبواب عقلك لأقدم لك دروسا تقويمية تجعل منك رجل العصر، سيد المرحلة...

درس الغضب :

1 - ... !
2 - اششش !
1 - ...
2 - ألا تعي ما تقول ؟ !
1 - ...
2 - أنظر حواليك
1 - ...
2 - *انظر كيف يخفي الناس وجوههم بين أيديهم حرجا ؟ !*
1 - وما لي وحرجهم ؟ أنا غاضب.
2 - اختر معجم غضبك ...
1 - إنه الغضب ! كيف أختار ؟

2 - تعلـم ذلـك.

درس الفرح :

1 – ... !
2 - اشـشـش !
1 - ...
2 - ما هـذا الـهياج ؟ !
1 - أنـا أضـحـك...
2 - أهكذا تضحك دائما ؟ !
1 – مـا الـمثير فـي ضحـكـتي ؟ !
2 - الضحك لا يـنـاسـبـك ...
1 - ...
2 - ابتسم.
1 - إن الأمـر أقـوى ؟ !
2 - تعلم ذلك .

درس اليقين :

1 - ... !
2 -اشـشـش !
1 - ...
2 - ماذا تقول ؟ !
1 - رأيي ...
2 - رأيك أم حتفك ؟ ألا ترى ما في قبضات الناس من أصنـاف الصخـور ؟ !
1 - ...
2 - إنـهم يستعـدون لرجـمك ...
1 - رجـمي ! ...
2 - قليـلا مـن الشجـاعة، إذن !
1 - مـاذا سأفـعل ؟ ...
2 – اسـحـب رأيـك ،قبل فوات الاوان...
1 – لكنني لم أعتـد علـى ذلك!
2 - تعلـم ذلك، وبـسرعة !...

بعد انتهاء الدروس :

1 - أرجوك . لا تفـارقـني ...
2 - لماذا ؟ لقد أفادتك الدروس وقومتك وأصبحـت شخصـيـة اجـتماعـية ووجـها ألـيفـا و ...
1 - أرجـوك، فأنـا لـم أعد أعرف لا ما أريد ولا ما أقول ولا ما أفعل ولا مـا أقـدم ولا ما أؤخــر...
2 - هذا يـحدث للـنـاس جـميعـا...
1 - لا. إحسـاسي بأخـطـائي هـو أشـد مـن أي وقـت. يـستحيـل وجـودي مـن الآن فـصـاعـدا دون شـخـص يوجهـني ويقـودني...
2 - لا داع للـقلق، سأظـل دائمـا إلى جانبـك.
1 - وإذا غـبـت ؟ !
1 - آنـذاك، الـزم الصـمت... ريـثما أعـود.

سنة 2000

التشظي

دور يا كلام على كيفك دور
خلي بلدنا تعوم في النور
ارمي الكلمة في بطن الظلمة
تحبل سلمى وتولد نور
يكشف عيبنا
ويلهلبنا
لسعة في لسعة
نهب نثور
دور يا كلام على كيفك دور"

كلمات : أحمد فؤاد نجم
ألحان وغناء : الشيخ إمام

الحدث : زيارة محتملة للمفتش
الشخوص : المعلم س ومن (لا) يهتم بـه
الزمان : السنة الدراسية الحالية
المكان : مدرسة قروية وما (لا) يجاورها

الأسبوع الأول

المعلم س :
سألعب كل أوراقي لكسب هذا الرهان. سأهيئ الجو داخل الفصل. ضبط التلاميذ مهم. عددهم الكبير مشكلة. حالة المراهقة التي يعيشها أغلبهم مشكلة أخرى بالنسبة لي. خارج العمل، علاقاتي سلمية مع آباء التلاميذ والزملاء المعلمين والإدارة الجديدة للمدرسة...

المدير :
يدك ترتعش، يا أستاذ. يبدو أنك غير مرتاح لزيارة المفتش المقبلة. لكنك بحاجة لنقطة امتياز تصالحك مع الإدارة وتبرهن عن مردوديتك وكفاءتك بعد كل هذه السنين من العقوبات التأديبية والإنذارات والتنقيلات التعسفية ...سأقف بجانبك، أنا المدير الجديد، لمساعدتك على الخروج من المأزق. الفشل ليس قانونا. الفشل فرصة لمراجعة آليات العمل ومعاينة النتائج. فاستعد جيدا . الوثائق . الهندام. تصحيح الدفاتر. تصحيح الكراسات. ضبط القسم ... اضبط قسمك أكثر. تلاميذك كثر ومراهقون. اللين معهم ليس في صالحك، أنت مقبل على تفتيش :
فرصتك التاريخية ...

الأسبوع الثاني

تلاميذ القسم :
- يا للقسوة ! ....
- لقد تغير معلمنا...
- لماذا ؟
- لا أدري.
- لم أعد أطيق الدخول للقسم.
- كل الدروس أصبحت نهرا وشتما ...
- كل حركة أثناء الدرس أضحت تثيره.

- أقضي كل وقتي جامدا على مقعدي. احترس في كل نظراتي وحركاتي حتى لا أكون عرضة للقدح.

آباء التلاميذ :
- هذه المدرسة أصبحت معتقلا لأطفالنا ...
- أولادنا صاروا ينفرون منها بسبب قسوة هذا المعلم ...
- هذا لا يجب أن يستمر ...
- يجب أن نتحرك كآباء ...
- يجب أن ننتظم أولا.

المدير :
ماذا يدور بدماغ هؤلاء ؟ لماذا احتشدوا بهذا الكم حول الإدارة ؟ لم يحدث أبدا أن كانوا بهذا الحماس!... عندما نستدعيهم لاجتماعات آباء وأولياء التلاميذ، يختفون داخل منازلهم. بعضهم يهربون حتى من بيوتهم خوفا من تحمل المسؤوليات. واليوم، جميعهم يلحون على ضرورة تجديد مكتب الجمعية وفي أقرب الآجال ...

زوجة المعلم س :
لا أعرف كيف يعيش زوجي لوحده في تلك القرية، خلال أيام عمله. هو صامت، بعد سنين النشاط والشباب الدائم. يسكت أكثر مما يتكلم. لا آخذ عنه إلا ما أتخيله. أحيانا يخامرني الشك حول صدق ما كونته عنه من صور وأحاسيس. وأشعر بأنني بعيدة، بعيدة عنه ... يعز علي أن أراه يكتوي في صمت...

المعلم س :
أحس وكأنني لم أعد أعرف ما أريده. لهذا لا أجد ما أقوله. الصمت يناسبني. أحيانا حين أنتبه لحياتي، يروعني منظري : دائما مجرور، مثل محراث قديم. أحيانا أخرى، أتخيل نفسي بيضة تتدحرج في كل الاتجاهات. أتخيل نفسي بيضة كبيرة. وأشعر بالاختناق تحت قشرتي.

الأسبوع الثالث

المعلم س :
لم أختنق أبدا في منام مثلما حدث لي الليلة الماضية خلال هذا الحلم. حلم غريب : لا أحد يراني. غير مرئي. الكبار والصغار ينظرون من خلالي. كأنني قطعة زجاج. كأنني لا شيء. زملائي يمرون أمامي ولا ينتبهون إلي. أناديهم. يستديرون.

ينظرون من خلالي إلى أشياء بعيدة ورائي. يدققون النظر إليها ثم يجرون بعضهم بعضا وينصرفون. لا أحد يراني. وأحسست بالوحدة. بالعزلة. بالوحشة ...

زوجة المعلم س :

لا يقول شيئا. لا يفصح حتى عن هيجانه. أحيانا حين يشتد غليان صمته، ينتصب غولا. عفريتا. وحشا كاسرا ... فأخافه . أذوب خوفا حين تنتابه هذه النوبات. يكسر الأواني ويركل المنقولات والأثاث المنزلي ويقذف بالأحذية على صوره المعلقة على الجدران ... وحين يتعب، يتهالك أرضا. لا يطاق ! الحياة معه مجرد تكسير. قد يصلني دوري قريبا. لا بديل لي عن الطلاق.

أحد الزملاء المعلمين :

يعز علي أن أراه مشتتا هكذا. يخطو في كل الاتجاهات ثم يتراجع عنها جميعا. سلوكه مع التلاميذ انقلب عليه. غالبيتهم انقطعوا عن الدراسة. أخبرني تلميذ منقطع أن س يزور بنفسه المنقطعين في بيوتهم ويقنعهم بالعودة للمدرسة، حفاظا على نسبة الحضور إلى حين مرور التفتيش ...

المعلم س :

اليومية تسلخ عنها أوراقها بسرعة غريبة. لم يعد يفصلني عن زيارة المفتش سوى أيام معدودة. القسم محكم. نسبة المواظبة : مائة في المائة. في حالة حضور المفتش في حصة "القراءة"، سأقدم درسا من خارج المقرر الدراسي. تعامل التلاميذ مع نص غير أكاديمي قد يساعد المفتش على بلورة فكرة صحيحة عن مستوى التلاميذ ...

التلاميذ :

- المفتش سيزورنا قريبا.
- من قال ذلك ؟
- المعلم.
- وما لنا والمفتش، نحن ؟!
- يجب أن نكون في المستوى ...
- وإذا لم نكن ؟
- المعلم سيغضب.
- هو دائما غاضب...

الأسبوع الأخير

استدعاء :

نحن
بناء على المسطرة المتبعة في القضية المشار إليها طرفه.
بناء على الفصلين 36 و 329 من قانون المسطرة المدنية
نأمر باستدعاء المدعي أو المستأنف السيد س.
وذلك للحضور في الجلسة العلنية التي ستعقدها المحكمة يوم كذا كذا للنظر في القضية المشار إليها طرته.

شكاية :

نحن آباء وأولياء التلاميذ، نتقدم إلى سيادتكم الموقرة ،ونحن في كامل الأسف والسخط، بهذه الشكاية ضد شخص المعلم س. الذي تجاوز حدود التربية ليسمح لنفسه بإهانة التلاميذ وضربهم ضربا مبرحا. وهذا ما جعل أبناءنا يعرضون عن العودة للمدرسة.

وإننا، إذ نراسلكم في هذا الصدد، ننتظر منكم اتخاذ الإجراءات اللازمة.
وتقبلوا، سيدي، ثقتنا في قراراتكم.

تقرير :

اختار السيد المعلم نصا قرائيا من خارج المقرر الدراسي. طبعه بالآلة الكاتبة على أوراق ووزعها على التلاميذ رغم أن بداية السنة الدراسية تتطلب التزاما بنصوص المقرر.ولقد اختار السيد المعلم كعنوان لهذا النص :

" من أجل تواصل أفضل".

وهو عنوان غير مبرمج سلفا في التوزيع الشهري، كما أنه عنوان نشاز بين مواد الوحدة التربوية المقررة لهذا الأسبوع.

نرفزة السيد المعلم خلال الدرس كانت واضحة، مما أثر سلبا على معنويات التلاميذ الذين كانت قراءة النص تفرض عليهم فرضا حين لا يبادر أحد بذلك.

السيد المعلم لم يحقق الهدف من الدرس. أدعوه لعقلنة عمله بتنصيص الأهداف الإجرائية والخضوع لسلطة المقرر الدراسي ومنهجيته.

علائقيا، يتمتع السيد المعلم بعلاقات غير طيبة مع أولياء التلاميذ. أدعوه لفتح باب الحوار معهم. واتباعه للنصائح المسداة إليه قد تساعده على تطوير أسلوبه في العمل.

سنة 1995.

الفرجة، الضباب والمشروع

"شيد قصورك ع المزارع
من كدنا وعرق إيدينا
والخمارات جنب المصانع
والسجن مطرح الجنينة".

كلمات : أحمد فؤاد نجم
ألحان وغناء : الشيخ إمام

الضباب الصباحي يمسح معالم ساحة الفرجة وحلقياتها المسائية، يخرس صدى تصفيقات المتفرجين وما علق بالذاكرة من تعاليقهم المرحة، يطمس آثار ثقافة الأمس فلا يفلت من تضليله سوى صياح هذا الديك :

كوكو ريكو !
كوكو ريكو !

صياحه الرنان بين قصدير البراريك المتحلقة حول الساحة يستثير ردودا متفرقة من ديكة نائية. الديكة تتنادى، تتواصل عبر لا نهائية هذا الضباب :

كوكو ريكو !
كوكو ريكو !

قطرات الندى ترتج لقوة الصياح وتنزلق بطيئة على القصدير، غاسلة الكلمات المشخبطة عليها :

رسوم لقلوب مغمدة بالسكاكين
عبارات منع التبول ورمي الأزبال
أرقام مرتبة تناقصيا ...
الضباب.
صياح الديك يستحيل زعيقا وراء عبارة منع :
"ممنوع رمي الأز ..."

تتوارى الحروف الأخيرة من المنع داخل براكة مع انفتاح باب وإطلالة عجوز تمسك، من الجناحين، بديك ضخم يحركها كاملة كلما انتفض بين يديها. تقف على العتبة. ترقب الخيالات الصباحية الصغيرة وهي تكنس ساحة الحي بربطات أعشاب يابسة وتنقل الأحجار وتجمع صفحات الجرائد التي يحملها المتفرجون معهم إلى الحلقيات المسائية ليجلسوا عليها ...
أغنية قديمة بصوت طفولي تصدح، عبر الضباب، في مكان ما جهة السقاية. صوت طفولي أنثوي يغني :

يا **الجيلالي، ها هم ليك ها هم ليك**
يا الجيلالي، احرش العيون، آه.

راكب على بغيلته
يتسارى في قبيلته
ما راضي بحكم النصارى
ها هم ليك، هاهم ليك
يا الجيلالي، احرش العيون، آه.

الصدى ينساب هادئا، سلسا، بعيدا ...

سرب من الرجال يتقدمون داخل الضباب نحو وسط الساحة، يتحلقون حول أقصرهم : رجل بدين يخشخش المفاتيح الكثيرة بيد ويداعب باليد الأخرى بطنه المكورة. يرسم بسبابته مستطيلات في الهواء، يشرح بذراعيه القصيرتين، يخطط بمقدمة حذائه على الأرض ...

العجوز، لنفسها، بصوت مسموع :

- اشكون هادو ؟

انتفض الديك بقوة حتى كاد يلقيها أرضا.

تمالكت نفسها من السقوط. أسندت ظهرها على طقطقة القصدير وراءها. السند خلفها لا يعتد به.

عدلت وقفتها :

- ربما الحلايقية طالبوا بعمود الضوء على حساب الفراجةو السهير ...

صغيرات، بدورهن، توقفن عن الكنس، يراقبن، بحذر، العمال وهم يساعدون صاحب العربة في إفراغ حمولتها من الآجور والإسمنت والرمل ...

إحدى الصغيرات سألت العجوز :

-آش غادي يديروا هاذوا، امي عايشة ؟

- أشغال هادو، يا ابنتي، كتعرف بأخرها ...

-هاذ الفروج لـــهم ؟ ...

زعيق باب مجاورة يقطع أسئلة الطفلة، لكنها تصيح منادية الشيخ الخارج بإبهامه في عين البنادير:

- عمي الجيلالي، شوف!

يسحق الجيلالي عود ثقاب ويشم دخانه كعادته حين يريد التركيز أو تدقيق النظر في أمر ما.ينتعش، ثم يبارك للعجوز ديكها.يقترب أكثر. يتحسس الديك بيده. يزنه من رجليه :

- الذبيحة على عتبة الدار، مهمة ! ...

الصغار والصغيرات يتحلقون حول الجيلالي، يجرونه من جلبابه، يلحون عليه بالغناء :

- فرجنا، عمي الجيلالي ! فرجنا ! ...

- الصباح وقت العمل. الفراجة مع المسافرين في المحطة. غادى في مهمة: الدراهم، اوليداتي.الحبشي. النيكل. اللعاقة...مازال البرنامج خاف عليكم ؟ الحلقة في العشية... أولادي. باي.

يتخلص منهم. يتسلم السكين من يد العجوز. يمرر الشفرة على ظفره. يراقب أثرها ويطلب الديك.

تتحاشى العجوز رؤية الدم، تنشغل بصرف الصغار وزجر الكلاب والقطط ...

القطط، الآن، فوق الزنك، تراقب تعابير الدم التي يرشها الديك الـمذبوح على الأرض، منتفضا أو راقصا على إيقاع الأغنية القادمة من السقاية:

يا الجيلالي، ها هم لي ها هم ليك
يا الجيلالي، احرش العيون، آه،
راكب على بغيلته
يتسارى في قبيلته
ما راضي بحكم النصارى
ها هم ليك، هاهم ليك
يا الجيلالي، احرش العيون، آه.

يبتعد الجيلالي من شررات الدم كلما اقترب منه الديك. ينظر باستغراب إلى ديك لا يشبه الديكة. ديك مذبوح يجري في كل اتجاه.

على رجليـــه. على جناحيه. على ظهره. ديك يقاوم الموت حتى آخر قطرة دم ...

في انتظار هدوء الديك، امسك الجيلالي بنديره وبدأ ينقره. العجوز تتابع بعينيها حركات الديك وهي تحرك رأسها لأزيز البندير :

ها البندير تكلم، اوليدي
هايلي، هايلي البندير تكلم، آهاه.
الليلة، الليلة
والليلة شايبة
ما نركدوا غير إذا ما
ضوى الحال، آه.

على الأرض، الديك لازال يقفز ويتمرغ في دمائه. يقف مقاوما التعب والموت. يتراخى قليلا قليلا. يثور من جديد. يطير. يسقط. ينقلب على ظهره. يثب واقفا على رجليه. يجري. يجري. يجري...

تنتفض العجوز كأنما أدركت خطأ :

- آش هاد الذبيحة، الجيلالي ؟ الفروج مازال حي ! عاوده بالذبيحة ! غادي يموت حرام ! اجر ! حط البندير على الأرض ...

الأطفال يجرون وراء الديك. يفرون منه حين ينتفض. يقبلون عليه حين يستكين. يلتقطونه أخيرا. يتسابقون لملامسته. يحملونه. هادئا. ميتا. يقدمونه لصاحبته وقد عادت البسمة إلى محياها. يستثمر الجيلالي ابتسامتها:

- مرحبا بنا عندك للعشاء ....
- اليوم، قصعة كسكس لكل حلقة ...
- وإذا أخلفت الوعد ؟ قصيدة، غادي ننظم عليك هاذ العشية...
- أنا في عارك ! القصيدة، لا ...

الضباب بدأ في التراجع. الساحة، الآن، تستعيد بعض معالمها.

العمال، بصمت ،،يشتغلون.

العجوز للجيلالي :

- غريب أمرهم !
- ما كيديوها ف احد ...
- إيوا آش كيديروا ؟!
- اللي ظاهر، أنهم كيبنيوا شي حاجة ما كتهمناش ...
- لو كان الأمر كيعنينا كون طالبونا بالفطور والمعونة ...
- وكيبنيوا وسط الساحة !
- غير خسارة الحلاقي، وصافي ! ...

العمال، الآن، يضعون آخر اللمسات على هذا المستطيل الإسمنتي. يتعاونون ليغرسوا فوقه لوحة حديدية. عاليا. فوق متناول الأيادي العابثة. يتأكدون أن اللوحة ثابتة. يسعفونها ببضع ضربات من خليط الإسمنت والرمل. ينزلون. يراقبون وضع اللوحة الحديدية فوق المستطيل. يبتعدون عنها. يقتربون منها. يقرؤونها. يمسحون بالإسفنجة شظايا الإسمنت عليهــــا...

اللوحة، الآن، عالية وواضحة.

جمع العمال أدواتهم وينصرفون.

تلكز العجوز الجيلالي :

- كل هذه القيامة على هذه الركيزة ؟!
- خاص نقراوها، بعدا.

يحاول طفل أن يقرأ لهما اللوحة :

- م . مش . رو . مشرو ...

تصرفه العجوز بلطف :

- باراكة باراكة ...

لكن الطفل يستمر في إثبات قدرته على القراءة :

- مشروع م . مر . مركب ...

تنهره :

- قلت لك : سر تلعب ! ...

يشعل الجيلالي عود ثقاب. يرمش انتعاشا بدخانه : عادة أدمن عليها منذ خروجه متقاعدا من الجيش حيث قضى شبابه بين رائحة البارود وهياج التحرير.

يقترب من اللوحة ليقرأها :

- "مشروع مركب سياحي"

الذهول يكتسح ملامح الرجل.

يعيد القراءة ثانية وثالثة. يحاول فهمها قبل شرحها للعجوز التي تلح عليه لكزا من الخلف. لكن غناء الصغيرات يشوش عليه :

يا الجيلالي، ها هم ليك ها هم ليك
يا الجيلالي، احرش العيون، آه،
راكب على بغيلته
يتسارى في قبيلته
ما راضي بحكم النصارى
ها هم ليك، هاهم ليك
يا الجيلالي، احرش العيون، آه.

الضباب، الآن، قد انجلى. الرؤية واضحة والشمس في عز السماء.

وضع الرجل بنديره على الأرض. ظلل عينيه بكفه من الشمس، مادا بصره إلى حيث تلتقي الأرض بالسماء من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار بحثا عن بداية ونهاية المشروع.

سنة 1993

في انتظار الصباح

إلى روح المعلم محمــد حـجوم، في ذكرى رحيله غرقا في فخاخ ثلوج جبال الريف بالمغرب.

كاليغولا_: ...هي حقيقة بسيطة وواضحة تماما، ساذجة نسبيا، ولكنها صعبة وثقيلة. **هيليكون** : وما عساها تكون هذه الحقيقة، يا قيصر؟
كاليغولا : الرجال يموتون وهم غير سعداء .

ألبير كامو
مسرحية* كاليغولا*
النص الفرنسي، ص :27/26

الساعة الثانية عشر ليلا :

خشخشة المذياع تختلط وارتعاشات ضوء الشمعة الوحيدة لهذه الليلة. لسان الشمعة يحترق داخل دائرة ضوء باهت مقاوما طوق الظلام حوله. لم أعد أطيق النوم في هذه العتمة، فوق طاولات هذا القسم المبني على أنقاض مقبرة عتيقة في هذا الجبل المنسي... كم أخاف هذه القبور حوالي !

أخاف أن ينتفض أهاليها في يوم من الأيام. لابد أنني أزعجهم بحياتي بين موتهم... المدير، صباح هذا اليوم، عزاني في موت زميلي بدر الدين البدراوي وتمنى لي نقاهة طيبة ثم شرح لي صعوبة الحصول على معلم ثان يعوض زميلي المرحوم، ويقتسم معي أفواج تلاميذ هذا القسم/ المدرسة. المدير أوصاني بقليل من الصبر ثم صارحني بعدم إمكانية الإخلال بالسير العادي للمؤسسة وحذرني من مغبة تكرار المأساة :

"الحيوانات في هذه الأرض مجواعة".

أتساءل : لو خطر هذا على بال ذلك السجين الهارب على متن دراجة حارسه، ترى هل كان يحسب للغابة والظلام حسابهما ؟... ربما مثل هذه الحسابات هامشية وغير مجدية حين يتعلق الأمر بطلب الحرية. ولذلك انطلق الهارب من أسوار السجن المجاور تاركا وراءه رفاق السجن في ذهول ورعب يتهامسون في اليوم الموالي أطراف الخبر الجديد : عثور الحراس خلال المطاردة على نتف بذلة السجين الهارب متناثرة على أشواك الغابة حيث لازالت عجلتا الدراجة النارية تدوران ببطء في الهواء قرب آثار جسم آدمي تمرغ طويلا في دمائه قبل أن يندثر ...

الساعة الثانية عشر ليلا :

نفخات الريح المتسلل من شقوق الحائط تعبث بلسان الشمعة. أحيط الشمعة بكفاي. دموعها تتزلق حارة، كبيرة على جوانبها لتتجمد على بـــرودة المنفضة. الشمعة تتضاءل بإصرار. أرش حول فتيل الشمعة حبيبات ملح للحد من ذوبانها. هذه شمعتي الوحيدة والليل مازال طويلا. الحقيقة أن الليل كان دائما طويلا. إنما الأمر كان أهون في السابق. لأننا كنا اثنين، معلمين.

كنا نعمل بالتناوب على هذا القسم المعزول بين هذه القمم الجبلية نربي أطفالا لا يتغيبون إلا أيام الأعراس والحرث والأمطار والفيضانات والثلوج والجنائز... أحيانا كان يأتي أحد الآباء ملتحفا كيس سماد فارغ ليتوسل الإفراج عن أطفاله حين تصادفهم نوبة مطرية قوية وهم داخل حجرة الدرس لأن الخنادق والوديان تفيض فتنقطع الطرق ... قساوة الطقس كانت تجود علينا، من حين لآخر، بعطلة استثنائية فنطلق سراح الصغار ونغلق علينا باب القسم ونوافذه لجمع الدفء للمساء. نصفف الطاولات في شكل سريرين عاليين ثم نبسط عليها الأغطية. كأس شاي منعنع قرب الوسادة ضروري لكل دردشة أو

نقاش. لكن ليالي الشتاء الطويلة كانت تستنفذ كل مواضيعنا. ولذلك أدمنا على القراءة، قراءة أدب السجون : بشر ينزلون بالمروحيات في معتقلات رهيبة ويتركون للثلوج. حتى إذا حاولوا الفرار، اعتقلوا ثانية واقتيدوا إلى حيث أريد لهم أن يقضوا بقية حياتهم... حكايات تتشابه كثيرا ومع ذلك كنا نقرؤها طول الليل. أحيانا كنا نقرأ نفس الرواية، في نفس الوقت، بصوت واحد. نرفع صوتنا عاليا لنقاوم الصمت والجنون. ذاكرة هذا القسم تشهد أن واحدا من كل معلمين يدخل عالم الحمق من باب هذه المدرسة.

الحياة والعمل بين القبور شيء رهيب: أن تدرس وترغد وتزبد بين بشر يرتاحون إلى الأبد. أموات في مكان ميت وزمان ميت. الصمت شامل. كل الأشياء بلا لسان، بلا صوت، بلا حفيف... ولذلك كنا نترك المذياع مشعولا طول الليل. لا ننام إلا على خشخشته ولا نحلم إلى على إيقاعها. تعلمنا، مع مر الليالي، كيف نحلم نفس الأحلام في نفس الليلة. نستعد للحلم قبل النوم : نحدد موضوعا بتفاصيله وألوانه... وفي المنام، تتوحد مخاوفنا وآمالنا بحلم الهروب من المقبرة إلى حيث يقيم الأحياء... حلم يتكرر ويتكرر إلى أن استيقظنا ذات صبيحة على عزلة جديدة : الباب لا تنفتح.

دفعناها بكل قوانا. ولا نتيجة. اقتلعناها من إطارها كاملة : يا للبياض!... الثلج حتى الركبة، الثلج عتبة بيضاء لا نهائية. صفحة بيضاء تطمس نتوءات القبور حول القسم وآثار العيون والخنادق والطرقات... طالت مدة الثلج وارتفع تهديده بضع سنتمترات فوق الركبة. أصبحنا نخاف أن تغلق علينا الباب بالثلج وتنفذ ذخيرتنا من الغذاء... كان أملنا هو أن يذوب الثلج بعد أربع وعشرين ساعة لكن الأيام ظلت تمر متشابهة:ليل بلا بدر و نهار بلا أفق يفصل بياض الأرض عن بياض السماء.

وفي لحظة ما من يوم ما، لاحت في البعيد خيالات صغيرة حية تخترق البياض وتركز العصي على طول المسلك : أهل القرية، تلك طريقتهم في التأكد من عمق الثلج قبل أن يتقدموا. يغرسون العصي أو القصب في الثلج ويتركونها مغروسة ليتذكروا ممر العودة إلى بيوتهم. بدون تلك الطريقة قد يسقطون بدورهم في فخاخ الثلج. في الخنادق والحفر التي يخفيها تحته. لكن أكثر ضحايا الثلوج هم غرباء لا يعرفون جغرافية المنطقة. وحين ينجلي الثلج، تحفر لهم قبور قرب القسم ثم يدفنون دون مراسيم.

<u>الساعة الثانية عشر ليلا :</u>

الشمعة تتناقص. الدموع الكبيرة تسيل ساخنة على جنباتها لتبرد على سطح المنفضة وتتجمد. الملح غير مجد. لا شيء يمنع الشمعة من الذوبان. هي تقترب من نهايتها، احتراقا. لكنها لا تثير رائحة الحريق. أكره الروائح القوية. حتى رائحة هذا الجير الطري المشخبط على حيطان القسم، تزكمني. تخنقني. تلهب رائحة الحريق في ذاكرتي. وعوض أن تخفي آثار الحريق تحت ضربات الفرشاة، تعود بها من جديد إلى الذاكرة ...

كنا اثنين. معلمين. كنا نستيقظ باكرا ونعد وجبة الفطور هنا، في هذه الحجرة، ونتناولها على عجل فوق الطاولات. نعد طاجين الغذاء ونتركه على موقد الغاز في آخر القسم. ننظف المكان قبل دخول التلاميذ ونعيد ترتيب الطاولات في مكانها ثم نجمع أفرشتنا لنخفيها تحت الطاولات عملا بتحذير الإدارة من عواقب السكن داخل حجرة الدرس. في الحقيقة، لو قدر للمدير أن يتحمل مشقة المشي ست ساعات على الأقدام ليزورنا في عالمنا هذا، لوجدنا نطبخ في حجرة الدرس أيضا ...

كنا نطبخ خبزنا بأيدينا.بدر يعجن داخل القسم وأنا أطبخ خارجه. أما في فصل الشتاء، فأطبخ الخبز داخل القسم محتميا من البرد والمطر : أضع ثلاث حجرات متكافئة حول حفرة من حفر القسم، وهاهو تنور قادر على رفع المقلاة وطبخ الخبز! وبعد الانتهاء من الطبخ، ألقي ببضعة مسامير على بقايا الجمر اتقاء لشرور الفحم على حياة النائمين... كانت حرارة اللهب المنبعثة من التنور تدفئ القسم وتجعله أهلا للنوم أيام الثلوج والبرد. وألفنا الدفء قبل أن نستيقظ ذات ليلة من ليالي الشتاء على روائح خانقة وألوان حارة تتماوج في كل مكان داخل القسم. شرارات تتطاير في كل اتجاه. لهب يتراقص فوق الطاولات. يقضمها. يلتهمها. ألسنة النار تلعق الجدران. تفحمها. النار تفترس المكان. الخشب يطقطق. يتشقق. يتفجر. يتهاوى على الأرض، فتاتا ملتهبا. تنهار النوافذ ويتدفق الريح إلى داخل القسم. تتأجج النيران. لا وقت للتفكير. بللنا أفرشتنا بالماء لنخبط بها على الألسن النارية. نخبط في كل اتجاه. النار تتسلى بحيرتنا. تخرج لنا ألسنتها، تندرا. نخبط بكل قوانا. الطاولات والنوافذ والباب جمرات كبيرة. نخبط بدون اتجاه. الحمرة حولنا تضعف. نخبط بكل قوانا. نخبط. نخبط ... الظلام. أخيرا، ا لظـ لاـ ا ـ ا ـ ا ـم . وفي انتظار الصباح، جلسنا خارج باب القسم نسعل ذخيرتنا من دخان الحريق.

وفي الصباح، عادت الغربان لتنعق فوقنا، فوق القبور. وعاد التلاميذ للمدرسة: سياح. يطلون من آثار نوافذ القسم إلى الداخل. يحاولون التعرف على مقاعدهم من خلال ترتيب هياكل الطاولات المتفحمة :

-"هنا كنت أجلس ، أتذكر؟"

- وأنت ورائي، هناك".

القسم سواد فاحم وكتل فحمية مكمشة في كل مكان. خضر مشوية. قضبان حديدية عارية لطاولات احترق خشبها. فحم. فحم. فحم ...

لم نكن مستعدين لقضاء ليلة أخرى هنا رغم تخويف آباء التلاميذ الذين جاؤوا لتهنئتنا على النجاة. ابتسمنا لهم لنقاوم الخوف داخلنا. لكنهم واصلوا الحديث عن شراسة وحوش الغابة ليلا : ذئاب سوداء، جائعة، شرسة، نظرتها حادة، مخالبها حادة، أنيابها حادة ...

<u>الساعة الثانية عشر ليلا</u> :

الشمعة ذابت. لم يتبق منها سوى دموع حول فتيل يلفظ آخر طاقاته. الشمعة تحتضر والصباح لازال بعيدا ... لا أعتقد أن أحدا يستطيع قضاء ليلة هنا. كنا اثنين وكان الليل يغلبنا. لكن حادث الحريق هو الذي جعلنا نقرر مغادرة مقر العمل. رغم تحذير العارفين من أهل القرية، غادرنا المكان. أن نسافر مشيا علىا لأقدام، شيء عادي. خاصة أيام السوق الأسبوعي حيث تنبض الطريق بحركة المتسوقين. عدا أيام السوق، فالغابة موحشة. صامتة إلا من أصوات طيور مذعورة تفر بين الفينة والأخرى من بين أشجار الأرز الباسقة. الآن، الطريق الطويل ينعرج يمينا. شمالا. يعلو. ينحني. خشخشات الزواحف على جوانب الطريق تضاعف من خوفنا وسرعتنا. نسابق غروب الشمس. التحام الأشجار يحجب الأفق. تفاصيل الأشياء في أرجاء الغابة تبهت شيئا فشيئا. الألوان تتوارى بالتدريج. الخيالات والظلال تنتصب في كل مكان. تكبر. تكبر. يذوب الظل في الظل. يصبح ظلا كبيرا، لونا واحدا : ظـلامـا. أخيرا، ها هو الليل. لا نرى، الآن، أبعد من موطئ أقدامنا. الظلام دامس. سنتيه حتما إذا ما واصلنا الرحلة. مصباح الجيب غير مجد في هذا الظلام الدامس. الظلام المطلق. عجلة السجين الهارب تدور في خيالي. أكاد أسمع أزيز دورانها في الهواء في مكان ما حوالينا. الظلام شديد والطريق لازال طويلا. لابد من التوقف. لابد من الراحة. تهالكت على الأرض. اتكأت على جذع شجرة ألهث عيائي. قدماي تنتفخان حرارة داخل حذائي. النوم يذاعب جفني. النوم على أرض الغابة في ذلك الظلام مخاطرة عظيمة. فكرت : النوم على أغصان الشجر أوفر أمانا من مفاجآت البر. طبعا هي غير مريحة لكنها مجرد ليلة عابرة. تسلقت الشجرة الأقرب إلى ملمسي. تأكدت من متانة أغصانها. ناديت على بدر أسفل الشجرة كي يلتحق بي. رفض. نومه عنيف. لا يستطيع النوم ثابتا. تركته. أضأت له، بالمصباح، دائرة ينام داخلها. نشر سترته البيضاء داخل دائرة الضوء على الأرض. استلقى عليها. كفه اليمنى تحت رأسه واليسرى تسخن بين فخذيه. النوم لا يطاوعه إن ظلت يداه باردتين.شيء ما في سترته كان يعوق راحته. استوى ثانية ليبحث عنه.استله من أحدالجيوب ومده لي: كتيب جامع لحنظليات العلي.عاد ليتوسد بياض سترته ثانية. لكن يديه هذه المرة لم تكد تدفأ حتى ملأت حنجرته الكون صراخا. صراخ عال. حاد. متقطع: "النجدة!". يستغيث . يستغيث. يستغيث ...وأنا مندهش فوق الشجرة أضيء بالمصباح دائرة، مسرحا ،حلبة يتخبط داخلها :

الأسود والأبيض

(الشخير والنجدة)

الأسود والأحمر

(الشخير والأنين)

الأسود والدماء

(الشخير والصمت)

من أعلى الشجرة، أتابع المشهد الحي : **سواد متوحش يفترس صديقا مرهقا.**

سنة 1995

الأبدية

"واش حنا هما احنا
يا قلبي ولا محال
واش الدنيا هكذا
يا قلبي ولا محال"

مجموعة "ناس الغيوان" المغربية

الشمس في قلب السماء.

الساعة الحائطية تدق منتصف النهار.

القطار يصل إلى محطة المسافرين. نوافذ عربات المقدمة تطل مباشرة على هذا المقهى الراسي على هامش الحركة والترحال . الركاب يطلون من النوافذ على لوحة بارزة تحت إكليل من الزهور يبدو في وسطها كروتوس، إله الزمن، وهو يلتهم أبناءه. تحت اللوحة، جوقة من الرواد يتأففون من الملل بالتناوب :

1 – من لديه ساعة ؟
2 – لا أحد .
1 – كم الساعة، تقديرا ؟
2 – لا ندري.
1 – الأفضل أن نعرف الزمن بحركة ما...
2 – كل شيء جامد في مكانه. لا شيء يتحرك...
1 – حركة الشمس، مثلا.
2 – الشمس لازالت في المكان الذي كانت فيه دائما...

الشمس في قلب السماء.

الساعة الحائطية تدق منتصف النهار.

القطار يصل إلى محطة المسافرين. نوافذ عربات المقدمة تطل مباشرة على لوحة قديمة يلتوي داخلها ثعبان يبتلع ذيله في شكل دائري أرقط. تحت اللوحة يجلس شخصان جنبا إلى جنب. يتحدثان دون تبادل نظرة :

1 – اسمع الأ غنية !
2 - ...
1 – أهذا فصل الربيع ؟
2 – ممكن .
1 – متى حل الربيع ؟
2 – ربما لم يحل بعد...
1 – حتى الشمس لا تعطي فكرة ...

الشمس في قلب السماء .

الساعة الحائطية تدق منتصف النهار .

القطار يصل إلى محطة المسافرين . نوافذ عربات المقدمة تطل مباشرة على رسوم بسيطة تتوسط الجدار الخلفي للسطيحة : دوائر متشابكة ومنفصلة، دوائر لا نهائية ... يجلس تحتها شاب يقرأ كتابا. يقاطعه جليسه :

1 – ماذا تقرأ ؟

2 – كتابا عن الساعة البيولوجية في حياة المخلوقات ...

1 – أية ساعة ؟

2 – هي داخل الكائنات الحية . كل جسم مزود بساعات خفية لها عقارب تضبط أوقات النوم واليقظة والجوع والحي... هذا ما يقوله الكتاب .

1 – والإنسان، هل له ساعة داخلية ؟

2 – لا أدري .

1 – أنا لا أرى هناك ساعة خارجة عن الإنسان حتى تكون هناك ساعة داخله... انظر إلى الشمس!

الشمس في قلب السماء .

الساعة الحائطية تدق منتصف النهار .

القطار يصل إلى محطة المسافرين. نوافذ عربات المقدمة تطل مباشرة على ... الأبدية.

سنة 2001

الأفواه الفاغرة

هنا قرب منحدرات التلال،
أمام الغروب وفوهة الوقت،
قرب بساتين مقطوعة الظل،

نفعل ما يفعل العاطلون عن العمل :
نربي الأمل.

محمود درويش
حالة حصار

لوحة

يقف الحمار ,تحت الأثقال، بانتظار قدوم صاحبه لينخسه على ردفيه ويسعفه ببضع ضربات على عنقه ليوجهه نحو طريق الخروج.

ينتظر الحمار دون سأم. يلعب بأذنيه. يوقف واحدة ويسقط الأخرى. يسقطهما معا. يرفعهما.يلوح بهما ببطء. يقدم واحدة ويؤخر أخرى ...

الانتظار:

يسقط شابان من سور الفندق بكيسين بلاستيكيين تنضغط داخلهما قطع خشبية ثم يختفيان بين قوائم الحمير.يطل الرأس الأول من مكان ما ليرقب العيون الآدمية ثم الرأس الثاني.وبضربة خفيفة لشفرة حلاقة يفصل الأذن الأولى عن جمجمة الحمار ثم يدخل فرشاة أحذية بين فكي الحمار ويقطع لسانه. ثم يبدأ حصاد الآذان والألسن : الأول يحصد من اليمين الثاني من اليسار حتى يلتقيان في الوسط ليفرا من الباب المشرعة، بأكياس منتفخة تقطر دما...

صاحب الحمار يفيق من غفوته : حماره أحمر بلسان عمودي، وفكين متباعدين هربت قطرات دمهما خارج باب" الفندق".يهب للتو جريا في أثرها حتى يجد نفسه يطارد أكياس الآذان والألسن أمامه، وهو يصرخ.

الهاربان أمامه يلتمسان منه التراجع :

- وما تخافش ...
- وراه هاذ السلعة ماشي لاولاد البلاد...
- وراه غادا تباع برا....

يتخلف الرجل عن المطاردة.يتوقف عن الجري ممسكا بفكه الأسفل المتدلي على صدره واللعاب يتقاطر، خاثرا ، على ساعديه...

يتحلق الناس حوله.

دردشات هامشية:

- ماذا حل به ؟
- أصابته أزمة ...
- أوه !
- تنرفز ولما صرخ بقي هكذا...
- ضعوا له المفاتيح في يده...
- لكنه مريض من فمه !..
- انظر داخل فمه !..
- لسانه يتحرك، لكن صوته غير مسموع...
- حماره أيضا، داخل الفندق بلا صوت...
- أوه ! سبحان الله. إذن ليس لدينا ما نفعله من أجله...
- انتظروا. لا تتركوا الرجل هكذا...لنأخذه إلى المستشفى.

في المستشفى:

الممرض: اجلسوه،هناك.
الناس:فكه سيسقط على صدره .
الممرض:حالة عادية. اجلسوه ،هناك.
الناس:والطبيب؟
الممرض:منشغل بعملية جراحية.سيهتم به حين يعود...
الناس:وهل سيظل الرجل فاغرا فاه هكذا؟
الممرض:كل هؤلاء الزبناء الذين سبقوكم لكراسي الانتظار يعانون من نفس العطب.وجميعهم ينتظرون بافواه فاغرة. إن الفك الأسفل سريع الانفلات والسقوط. التفوه بفتحة فم كبيرة أو الصراخ أو الضحك هو سبب العطب.
الناس:اذن، لينتظر...
الممرض:هل لديكم شغلا تقضونه ؟
الناس:لا.
الممرض:اذن،اجلسوا معه جميعا وا نتظروا...

***سنة* 2001**

هوية

يادارة، دوري فينا
ظلي دوري فينا
تاينسوا أساميهم
وننسى أسامينا

كلمات وألحان: الإخوان الرحباني
غناء : فيروز

سلمني رجل الأمن النسخة الجديدة من بطاقتي الوطنية وظل يتابعني بنظرة تشف عن ريب من أمري ثم قال وهو ينفض أذنه بسبابته :

- بالك !هــذه النسخة الثالثة من بطاقتك الوطنية ، فلا تكن شماتة مرة أخرى. أتسمع ؟

بالك !

بالك !

بالك !

خارج مركز الأمن، جاذبية إضافية تلصقني بالأرض وتجعل خطواتي أثقل فأثقل.

استمتع بثقلي...

رشاش نافورة الساحة يذاعبني وأنا أبتعد نحو باب السوق. الزحام داخل السوق لا يفتر في أي وقت. الزبناء يتزاحمون، يتواجهون، يتدافعون بضيق بالغ . باعة الخضر والقطاني والسردين، على جانبي الممر الوحيد، ينبهون المتدافعين ويلعنون أمهاتهم وهم يضربونهم على وجوههم بربطات البقدنوس حين تنقلب لهم أكياس القطاني أو تتشتت لهم صناديق السردين تحت رفس الأقدام الهائجة:

بالك !

بالك !

بالك !

دفعة جانبية أخرجتني من شرودي ورمتني فوق أكياس القطاني. انقلب علي كشكول البضائع الرخيصة. أتمرغ في العدس والحمص واللوبياء بحثا عن موطئ قدم بين المتدفقين ...

أحس بالخفة.

الزلة أفقدتني كل وزني، كل ثقلي…كأنني تخلصت من شيء ما، أو كأنني فقدته. أفتش في جيوب سروالي. الجيوب الأمامية... الخلفية...أعيد التفتيش مرة ثانية... ثالثة...ركبتاي ترتعشان... الحافظة ؟ ركبتاي تخونانني في كل خطوة ... البطاقة ؟...أطالع الوجوه حوالي : الكل يتزاحم و لا أحد يهتم بي .

السيل الآدمي يقذفنا خارج السوق، إلى الساحة الأخرى. رشاش هذه النافورة يرشقنا جميعا ببصاقه.

ركبتاي ترتعشان. النسيم يغير لي وقفتي باستمرار.

أنا الآن بلا وزن.

أخف من الريشة.

كأن جاذبية الأرض استغنت عني، فجأة.

ربما أنا الآن أثير ضحك سراقي بهذا الذهول. ربما هم الآن يرشفون قهوتهم في إحدى هذه المقاهي، ويتنذرون بغبائي...

أحد زملائي دلني على رئيس الفرقة المكلفة بعمليات النشل في السوق : رجل أنيق يرتدي بدلة رمادية وهو يرشف قهوته وحيدا تحت

ظلة على سطيحة مقهى "المنظر الجميل " قبالة باب السوق.

سألني الرئيس ،حين أكملت قصتي :

- وأين سرقت ؟

أجبت:

- في السوق.

لكن الرئيس، على ما يبدو، حريص على معرفة الجزئيات والتفاصيل :

- أين ؟ عند الدخول ؟ الخروج ؟...

- عند الخروج.

مال الرئيس على زميلي وهمس بصوت مسموع :

- زميلك غير محظوظ. الخروج ليس على حسابنا.

ثم التفت إلي ثانية :

- ماذا كان في حافظتك ؟

- بطاقتي الوطنية .

صمت الرئيس برهة ثم قال بأسف مفتعل :

- أنت ضحية لصوص ليسوا أبناء البلد وهم يسرقون أي شيء من أي كان. ومنهم من يختص في سرقة الوثائق وبيعها للمهربين والمجرمين والبغايا ...

رشف الرئيس قهوته ثم أردف :

-كن حذرا !

لم أجبه .

ما جدوى الحذر بعد الآن ؟ !

واصل الرئيس نصائحه و عينه لا تبارح باب السوق :

- هؤلاء الذين سرقوا بطاقتك، سيطاردونك أكثر ليسرقوا المزيد من وثائقك : جواز سفر، دفتر شيكات، توقيع ...إن بطاقتك الآن تباع في مكان ما بالمزاد. وكل من اشتراها سيسبب لك متاعب كثيرة . لأنه سيصبح بمقتضى القانون هو أنت بالإسم والمهنة والعنوان والتواريخ... الوثائق، يا ابن بلدي، تصنع الشخصية. وكلما كانت الوثائق كاملة ومنسجمة، كانت الشخصية حقيقية وشرعية.

ثم التفت إلي قائلا :

- هل تتذكر وجها من الوجوه التي ضايقتك عند مخرج السوق ؟

أسترجع الأحداث والوجوه على شاشة ذاكرتي: الزحام، الدفع، لعنات الباعة، لهاث المتزاحمين داخل عنق قميصي، لامبالاة الوجوه حوالي...

الرئيس ينتظر جوابي.

قلت :

- لا.

تأفف الرئيس مستاء واعتذر عن مساعدتي .

أنا لا أعرف سبب هذه الهيبة التي تعتريني كلما درجت سلم مركز الأمن. حتى الرايات تفزعني حين ينفضها الريح فوق رأسي...

وضعت وثائقي على مكتب رجل الأمن :

- هذه لوازم البطاقة الوطنية، وهذه شهادة الضياع ...

اندهش الرجل :

- ضياع من ؟ ألست ذاك الذي تسلم النسخة الثالثة من ب طاقته الوطنية هذا الصباح ؟...

ظل مشدوها يتفرسني. عيناه في عيني تبحث عن الخدعة التي أنسجها له.

يتفرسني...

خبط أخيرا على مكتبه ثم نهض من مقعده، مستغربا :

- انتظر هناك. سأصعد لأستشير في قضيتك.

سنة 1994

أرض الغيلان

"إن في رفع الأنصاب لخطرا فاحترسوا من أن يسقط عليكم التمثال المنصوب فيقضي عليكم (...) هذه نصيحتي إليكم،ابتعدوا عني وقفوا موقف الدفاع عن أنفسكم تجاهي، بل اذهبوا إلى أبعد من هذا، اخجلوا من انتسابكم إلي فلقد أكون لكم خادعا".

فريدريك نيتشه ،
هكذا تكلم زرادشت
(الترجمة العربية) ص. 105

- أيها الإخوة، تعالوا نتحلق حول الزعيم !...

- أيها الإخوة، خطاب الزعيم! ...

- اششش! ...

خطاب الزعيم:
إن في رفع الأنصاب لخطرا فاحترسوا من أن يسقط عليكم التمثال المنصوب فيقضي عليكم (...) هذه نصيحتي إليكم،ابتعدوا عني وقفوا موقف الدفاع عن أنفسكم تجاهي، بل اذهبوا إلى أبعد من هذا، اخجلوا من انتسابكم إلي فلقد أكون لكم خادعا.

الهيـاج :

-عن أي خداع يتحدث الزعيم ونحن في هده الحالة الدنيئة؟
- يـجب أن نـخجل من أنـفسنا...
- لازلـنـا نـخـاف الـغـول...
- شـبابـا وشـيـوخـا ولا نـقـول إلا مـا يـروق للغـول...
- ولا نـفـكـر إلا فـيـما يـهـدده...
- الـغـيـلان انـقـرضـت عـنـد غـيـرنـا مـنـذ زمـان ...
- ولـمـاذا لا تـنـتـهـي عـنـدنـا ؟ مـا الـفـرق ؟ ؟ !
- تلك مسؤوليتنا...

خطاب الزعيم :
أيهـا النـاس، أيـن المفـر ؟ البحـر مـن ورائكـم، والـعدو أمامكـم، وليـس لكـم والـله، إلا الـصدق والصبر...فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم، بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن، إن سمحتم لأنفسكم بالموت... واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا، استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا. فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظكم فيه بأوفر من حظي... واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه، وأني...حامل نفسي على طاغية القوم...فقاتله...فإن هلكت بعده فقد

كفيتم أمره... وإن هلكت قبل وصولي إليه، فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا المهم من فتح هذه الجزيرة بقتله.

الهياج، مرة أخرى :

- تحيا الشهامة !
- تحيا الشهامة ! ...
- تحيا الكرامة ! ...
- تحيا الكرامة ! ...
- أيها الإخوة، ساندوا الزعيم، في مواجهة الغول...
- نعم، ساندوا الزعيم، رافقوه نحو كهف الغول...
- يحيا الزعيم !
- يحيا الزعيم ! ...
- يسقط الغول !
- يسقط الغول ! ...

خارج باب كهف الغول :

- أيها الإخوة، لنستعد لكل المفاجآت...
- مستعدين!...
- جميعا من أجل الكرامة !
- جميعا!...
- جميعا فداء ا للزعيم !
- جميعا!...
- الكرامة أو الموت !
- الكرامة !...
- أيها الإخوة، أليس مريبا هذا الصمت وراء باب هذا الكهف ؟ !
- هل التهم الغول الزعيم ؟ !...
- أيمكن أن يلتهم الزعيم بهذه السهولة ؟...!

الخروج من الكهف :

- أيها الإخوة، باب الكهف ينفتح...
- أيها الإخوة، حيوا الزعيم !
- يحيا الززززز...
- من ذاك الذي يضيف قبضته لقبضة الزعيم تحية لنا ؟...
- هل هو الغول ؟ !
- أيهما الزعيم ؟ !...
- أيهما الغول ؟ !...
- لا أدري، لكنهما يقتربان منا...
- ماذا عساهما يقولان ؟ !...
- اششش !...

الخطاب ، مرة أخرى :

أيـها النـاس، اسـمعوا وعوا. وإذا وعيتـم فانتفـعوا... إن الدهـر قـد أدبنـي وقـد أحببـت أن اؤدبـكم، وأزودكـم أمـرا يكـون لـكم بعـدي معقـلا... كفـوا ألسنتـكم فـإن مقتل الرجل بـين فـكيـه... أيهـا النـاس، إصـلاح فسـاد الرعية خير من إصـلاح فساد الراعي.ولـهـــذا فـإنـــي لأرى...

الصمت :

-... !

- ...!

- ...!

- ...!

سنة 2000

الشرخ

"إذا ما رأيتم متداعيا إلى السقوط فادفعوه بأيديكم واجهزوا عليه. إن كل شيء يتفسخ ويتداعى في هذا الزمان ، فمن ترى يحاول دعم ما هوى؟ أما أنا فإنني أريد سقوطه"

فريدريك نيتشه ،
هكذا تكلم زرادشت
(الترجمة العربية) .ص239

سكان العمارة :

- إنـها تنشـق أكثـر فـأكثر !
- هـي تتـصدع...
- ستنشـطـر ...
- هـديـر أول شاحـنـة سيـهـزهـزها ويـهدمـها أرضـا...
- ورب العمـارة ؟
- هو يرانـا جـماعـة مجانـين مهـووسـين بانهيـار البنـايـات...

مالك العمارة :

لو كـان الـشق أفـقـيـا لـما قامـت كـل هـــذه القيـامـة. لـكنـه عمـودي ويـنـخـرها مـن الأرض إلـى السـماء. الـحقيقــة أنـه فــي البدايــة لـم يكـن بـوسعـي تفهـم شكــاوي سكـان الـطابـق الأرضــي حيـن لاحـظـوا أثــر الـتـشـقـق ولـذلك صـحـت فـي وجـوهـهـم :

" العالم كله يتشقق . ألا ترى عيونكم سوى هذه العمارة ؟ "

وعـنـدمـا تعـالـت الاحتجـاجـات مـن الطـوابــق العليــا، سـارعت بطـلـب بنـائـين مهـرة حــاولوا التغـلـب علـى الشـق بـحيل عجيبـة. تعـامـلـوا مـعـه كـجـرح طـويـل وزرعوه أفـقـيا بـقـضـبـان حـديـديـة لـمنــع امـتـداد الشـق أو اتــساعه ثـم أعـادوا إلـصـاق الفسيفساء والـمنـقـوشات الـجـبـصـيـة مــكـانــها. إلا أن الـشـق كــان أقــوى مـن كـل تـجـمـيـل وعــاد ثـانـية ليشـق بـاقـي طـوابـق الـعـمـارة.

جمعية المهندسين بالمدينة :

لا مفـر مـن إخـلاء الـعمـارة مـن سـاكنـتـها وهـدمـها قبل أن تـودي بـأرواح أهـلــهـا وتــخـرب الـوحــدات السـكـنـيـة حـولـها. فـبـنــاء الـعـمـارة، أصـلا، لـم يـراع خـصـوصـيـة الأرض الـتـي أقـيـمـت عـلـيـهـا ثـم إن الـبـنـايـة رغــم واجـهـتــها الـعـصـريـة فهـي مبـنـيـة بطريـقة غـير شـرعـيـة فـوق بيت عتيـق...

ولـكل هـذه الأسـبــاب فـإن جـمـعـيـة الـمهندسـين بالمدينة تـتـبـرأ...

ن– ت – ب – ر – أ .

حـارس العمـارة :

سيـدي، عنـدي لـك خـبـران : الأول مـقلـق والثـاني سار .

أمـا الخبـر الأول، فالـجـرائـد الـمـحـليـة هذه الأيـام لا تـهـتـم سـوى بـمـوضـوع الـعـمـارة وتـنبـش في ظروف بـنـائـها واحـتمـال انـهـيـارهـا وتبـعـات الـكارثـة الـتي يمكـن أن تتـسـبب فيـها... فالسكـان اخـلـوا الـعـمـارة ونـصـبـوا الـخيـام حـول إقـامـتـك بـالـضـاحـيـة وهـم يـروجـون للـنـزول إلـى الـشـارع فـي تـظاهـرة تـنـاصـرهــم فيـهـا جـمـعـيـة الـمـهندسـين بـالـمديـنـة...

أمـا الـخـبـر الـثـاني،سيـدي، فـهـو قـدوم عـبـقـري الـمعمار الـعـالـمي إلـى مـديـنـتـنـا للاطـلاع عـلـى مـشـروع بنـاء تـتكلـف بـه شـركتـه الأجـنبيـة. لـهـذا، فاتصـالك بـه، سـيـدي، قـد يـفـيـد فـي إصـلاح الأمـور.

مع مدير شركة البنـاء :

- الأمـر بـسيـط، سيـدي.
- يسـرنـي أن أسـمـع ذلـك، لكـن كيف ؟
- ستـحـفر خمس سنتمترات يمين الشرخ وخمس أخـر يـسـاره. ثـم تـمـلأ الـعـشـر سـنتمترات الـمحفورة من أسفل العمارة لأعلاهـا بـورق الإسـمنت. ثم تلبس كل ذلك بخليط الرمل والإسمنت.
- وسـنـتـخـلص مـن الشـق بـهـذه السـهـولـة ؟!
- خـليط الـرمـل والإسـمـنت سيـلتصـق بـالـورق المحشو فـي الـشـرخ. آنـذاك، زلـج كـمـا تـشـاء واطـل جدران عـمـارتـك بـأي لـون تـشـاء فـلا تـخـف ظـهـور شـرخ أو قـيـام احـتـجـاج...
- وهـل سيـلـتـئم الشـق مـع مـدار الـزمـن ؟
- كـلا. فالـشـرخ سيـبقى داخـل الـجدار بنفس الشسـاعة والـعـمـق لأن الأرض فـي هـذه الـجـهـة تـتـنفس، يـا زبـونـي العـزيـز.

سنة 1994

حديث غراب

"الإنسان الذي تطور من قرد سيعود قردا ، ولن يكون هناك أي أحد ليهتم بهذه النهاية الغريبة للكوميديا (...) فمن المحتمل جدا كذلك أن تكون عاقبة الإنحطاط المحتمل للحضارة الأرضية في موليتها هي تبشيع فظيع جدا للإنسان،لينحط في النهاية إلى حيوان ثم إلى قرد. وبما أننا نستطيع التفكير في هذا الإحتمال فقد نستطيع تدارك انتهاء المستقبل إلى مثل هذا الأمر".

فريديريك نيتشه،
إنسان مفرط في إنسانيته
(الترجمة العربية)
ص. 139

إحساس غريب سيعتريك وأنت تخطو داخل هذه الضيعة فتتساءل :

-"هل نسيت أداة من أدواتي ؟"

تتفحص حقيبتك وتتأكد أنك لم تنس شيئا. لكن الإحساس الغريب سيلازمك وأنت تخطو بين أشجار البرتقال المتراصة على جانبي المدخل محددة لعينيك اتجاها وحيدا.

الإحساس الغامض يحتويك وتمرق بذاكرتك فجأة حكايات الأجداد عن أقوام الزمن الغابر الذين أساؤوا الفعل فمسخوا غربانا وقردة وخنازير...

فضاء الموت :

سيقـــف رب الضيعة، عند نهاية الممر، بانتظارك مادا يده للمصافحة ليقـــول لك :

- علمت أمس أن معهد الفنون الجميلة وزع طلابه في مهمات فنية على عدة ضيعات بالبلاد...

ثم :

- أنت غير محظوظ...

وحين لا تدرك معنى الإشارة، يضيف :

- أنا أيضا أعشق فن التصوير، لكنني أفضل الطبيعة الميتة لخلوها من الحركة. الحركة معاناة. والإنسان بطبعه يكره المعاناة. الفن يجب أن يكون جميلا. متفائلا. ممتعا...

فضاء الخلق :

ستنصب حامل اللوحة وتخرج أدوات الرسم والتلوين من حقيبتك استعدادا للعمل وتجلس لترتيب الأصباغ على حاملة الألوان.

استرق نظرة إلى ملامح رب الضيعة وستجده مـ ـ ـغـ ـ تا – ظا- للـ ـ ـغا – ية !... لكنه سيفتعل ابتسامة متواطئة ويقول لك:

- خذ راحتك !

فضاء الصمت :

الطبيعة أمام عينيك صامتة، ميتة... إنما المنظر متوازن وجيد التأطير: الأشجار على حافتي اللوحة تقف إطارا لها تسمر في خلفيتها القريبة بغل محمل بالأثقال، أما في خلفيتها البعيدة فترعى ثيران مغلولة القوائم، يجر اقواها من القرنين عبد من عبيد الضيعة، ويتقدم به نحو واجهة اللوحة...

يتبع الثور العبد دون عصيان ليربطه في جدع شجرة مقطوعة، قبالتك، في منتصف اللوحة،في انتظار الآتي...

فضاء الأمر:

هنا لن تسمع سوى الأمر، ولن ترى سوى الطاعة :

- ماذا تنتظر ؟ ابدأ ! ..

-"حاضر، سيدي ! " ، سيجيب "لمعلم " الخصاء وهو يندفع نحو الثور.

هذا أمر، ومن السيد، رجل جبار يملك الأرض والثيران والبغال والعبيد الذين ورثهم عن أجداده أقوياء ومخصيين، لكنه رغم الإرث وشساعة ظل الأجداد، فقد بلغ به الإجتهاد في التفسير والتأويل حد مخالفة خط السلف في أمر جوهري : فهو من حين لآخر يقدم على عتق رقبة من رقابه تكفيرا عن يوم راود فيه إحدى زيجاته أو محظياته أو سراريه فأفطر وإياها رمضان. إلا أن أغلب العبيد المعتقين يعودون ثانية إلى هذه الضيعة رافضين حريتهم وكلهم حنين إلى حياة الماضي والخصاء.

فضاء الطاعة :

سيمسك " المعلم " الخصاء بالثور من منخريه ثم يلوي عنقه ويطرحه ارضا، يستل خصيتي الثور من بين فخديه ويدهنهما بالشحم ثم يضعهما بعناية على جذع الشجرة.

سيقول السيد ل"لمعلم ":

- أريد ثورا قويا، ثورا يحرث الأرض بمفرده، ويشغل السقاية لوحده... أما الفحل، فستحتاجه أبقارنا للتخصيب ساعة في السنة وآنذاك يمكنني كراؤه.

فضاء الصخب:

يظل الثور حول المقصلة، يشخر من الدوار حتى يهوي المخبط على خصيتيه :

ع ع ع ع ع ع ع ع ع ع ع ع !...

الثور يتمرغ في قيده... يحاول أن يركل من الألم... يصرخ... يعوي... ينبح... كأنه لم يكن يوما ثورا...

ع ع ع ع ع ع ع ع ع ع ع ع !

قرب الصراخ، يقف البغل برأسه داخل كيس متدل من عنقه يعلف النخالة بنهم...

فضاء المسخ:

تنظر إلى اللوحة أمامك وتجدها بعد كل العنف والصخب خالية من كل حركة،

مجرد طبيعة ميتة : أشجار برتقال على جانبي اللوحة تؤطر الفراغ الذي كان قبل قليل يعج بالألم والصياح المسعور... وتتساءل :

ماذا حدث للوحة ؟ ! .

ثم تنتبه للفرش بين قدميك على الأرض : مكسرة، مفتتة ... وتتساءل :

ماذا حدث للفرش ؟ !.

وتتذكر يديك فتتحسسهما :

يا اااااا ردتان ...

مشلولتان ؟...

يدا رجل آخر ؟ ...

ليس كل ذلك مهما، المهم هو أن المسخ قد اختارك، وأنك التحقت بمسوخ التاريخ، ومرحبا بك بيننا : قردًا على الأرض أو غرابًا في السماء.

سنة 1997

وطن العصافير المحبطة

" كل إنسان تعجزون عن تعليمه الطيران
علموه على الأقل أن يسرع بالسقوط."

فريديريك نيتشه،
هكذا تكلم زرادشت
(الترجمة العربية) ،ص.239

زحف بكرسيه المتحرك على سطح العمارة صوب الطفل الذي يرقب أسراب العصافير المتزحلقة على زرقة السماء ثم ربت بكفه الباردة على دفء الذراع الصغيرة هامسا:

- تذكرني كثيرا بأخيك، عباس...

تنهد الصغير، ثم :

- أكان عباس يعشق العصافير أيضا ؟

- حتى الجنون ...

صمت الرجل المقعد قليلا ثم أضاف :

- كان يقضي معظم أوقاته في مكانك هذا، وحيدا، يرقب صفاء السماء ويتابع رقص العصافير وهي تعلو وتبتعد...

وحين لاحظ إصغاء الطفل، استرسل :

"كان مغرما حد الهوس بالعصافير، سألني مرة عن لغة تواصلها، فقلت أنـــــها تغـــــــني وتزقـــــزق، وكــــم أعـ ـ جـ ـ بتـ ـ ـه الـ ـ فكرة ! فقد صرخ :

- كم هو رائع، ياأبي، الغناء عوض الكلام !...

ثم بحماس زائد :

- والغذاء ؟ !

أجبته بأن العصافير لا تعرف مشاكل غذاء : هي تقتات في أي وقت شاءت ومن أي حقل في الدنيا لأن العالم يصبح أصغر وفي المتناول حين نطير، ولذلك فهي تختار أماكن إقامتها، ومنها ما يختار الحياة فقط في الفصول الجميلة مهاجرا من شمال الدنيا إلى جنوبها بحثا عن الشمس والغذاء...

لكن عباس فاجأني ذات مرة :

- *هل يمكنني أن أطير، يا أبي؟*

نفيت.

- *الأجداد فوتوا علينا فرصة الطيران.*

لكنه كان يحتج بانفعال بالغ :

- مالي والأجداد، يأبي ؟ أنا أسأل عن نفسي ...

وأضطر لأعقلن الأمر :

- كان على الأجداد أن يجربوا الطيران من أول الزمان حتى يكتسبوا أجنحة وينقلوا لنا قدرتهم على التحليق ولكنهم لم يفعلوا. ولذلك نحن الآن على الأرض، بلا أجنحة.

- سألصق ريشا على ذراعي وأطير ...

أجبته بأن الأجنحة لا تلصق. الأجنحة، مثل ملامح الوجه، تورث.

- أنا لن أبقى مسمرا هنا، أنا أريد أن أطير...

- لن تطير...

- سأطير...

لقد جربت قبله ما كان هو بصدد التفكير فيه. أنا أيضا كنت طفلا مثله وحاولت الطيران من حافة هذا السطح غير مبال بحشد الجيران في الشارع تحتي، ممسكين بالملاءات من أطرفها وهم يناشدونني ألا أنتحر :

- ما تنتحرش، راه ما عندك لا دنيا ولا آخرة !...

- ما غاديش انتحر، أنا غادي انطير ! ...

- وراه ما عندك لا دنيا ولا آخرة ! ...

لكنني ارتميت من حيث تقف أنت الآن. إنما عوض أن أطير، سقطت عليهم بقوة حتى تمزقت الملاءات التي كانوا ينشرونها لي فارتطمت بصلابة الأرض وتكسرت ساقاي. والنتيجة أمامك : أنا لا أطير، أنا أزحف... لكن عباس، أخاك، ازداد ولعا بحياة العصافير ونسلها وتغريدها إلى أن وجدت نفسي مرة أزحف بكرسي المتحرك لأطل على الشارع، أسفل العمارة، حيث احتشد الجيران لتضميد الجمجمة المشطورة للذي حاول الطيران، تهورا..."

سحب الأب المقعد كفه الباردة عن ذراع الصغير لاستخلاص العبرة من التجربة. لكن الطفل سبقه، ووجهه دائما إلى الأفق البعيد :

- لا تخف، يا أبي، لن أفعل مثلك ولا مثل عباس...

ثم جازما :

- سأطير، يا أبي، وسأنجح في ذلك.

سنة 1997

افتـــح، يـــا سمسم

إلى شاب جامعي معطل

ما هذا ؟ ...
مرتبي ؟ ...
هل أصبح لي عمل ؟...
هل هذا تعويض عن عطالتي ؟...
أنا لم ألف المفاجآت في حياتي ... و الآن؟... هل أحلم؟... هل أعيش حياة ثانية؟... مئات الدراهم...!
في جيبي أوراق نقدية من فئة مئة دراهم ...!
عجبا! ...
أتحسس الأوراق... الواحدة تلو الأخرى ...أثنيها أكمشها ...
هبة من السماء! ...
أرفعها قبالة الشمس... أتفحص الخيط الفضي داخلها ...
الخيط هناك ...
الخيط واضح و غليظ مثل هراوة...عبارة التهديد مكتوبة أسفل الورقة المالية بالعربية الفصحى:
"كل من حرف أوراق البنك أو زورها أو ساعد على ذلك سيعاقب طبقا للقوانين والقرارات الجاري بها العمل" ...
لا مجال للشك ... الأوراق البنكية حقيقية...
-"الآن أصبحت مسؤولا عن أسرتك... يجب أن تشتري ملابس لاخويك ...هناك متجر في المنعطف".
انتبهت الى مصدر الصوت عند قدمي ...
أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! ...
من هذا الذي يرشدني؟ ... متسول حاف عار يستر عورته بيديه!... إنه يعرف ما يدور في دماغي! ... و هؤلاء الرجال المعتصمون قبالة تلك البوابة وهم يئنون شعارات حزينة، هل هم يموتون؟... إنهم يكترون ... شكاويهم تملأ المكان صخبا:
- أنا مطرود"...
-" أنا موقوف" ...
-"أنا مرفوض" ...
-"أنا .."..
يغمرني الخوف... أضطرب... تسود الدنيا أما عيني ... سواد ظلام دامس... أتحسس الحاجز أمامي ... أبحث عن مخرج ... هذا باب ... باب موصد ... باب خشبي ...حديدي... حجري ... أقرع الباب...
لا أحد يجيب ...
أنادي بكل قواي:
-"**افتح يا رفيق!**"
سكون ...
-"**افتح يا أخ !**"...
سكون
-"**افتح يا سمسم !** "...
وينفتح الكون! ...و ينجلي السواد ...! وتنقشع الظلمة عن رجل و طفلين ... عن بائع و... اخواي الصغيرين!...
يا للصدفة ! ... اخواي!... ها هما يقيسان القمصان ... يشاوران البائع ... في اللون ... في الطول ... في العرض ... يااااااا...! يا العجب ! ... سبقاني للمتجر! شيء ما حدث! ... لم تبق لي أسرار ... حياتي لم تعد لي وحدي ... أصبح غيري يعرف أسراري ويسمع أفكاري ... أصبحت أخاف أن أفكر ...

-لا تخف! ... يقاطع البائع تفكيري يربت على كتفي ... لا تخف فكر كما تريد ... ما يحدث هو مجرد تفاهم ...
ينحني البائع على الطفلين ... يقبلهما... أسناهما تزداد بياضا تحت بسمة الفرحة بكسوة العيد ... أؤدي ثمن القميصين ... و لأول مرة أحس بمتعة صرف المال ! ... متعة المسؤولية !... يقبلني أخواي ... ينصرفان ... نشيطين على غير عادتهما ... يقفزان ... يجريان... يتوقفان ... يطالبان المارة أن يقرؤوا لهما الكتابة على صدر قميصهما... يرددانها ... يفرحان بها ...يجريان ... يطلقان ذراعهما الصغيرتين ليطيرا ... يحاكيان اللقلاق القادم من الجنوب ،السابح على مهل في زرقة السماء، باسطا جناحيه الطويلتين وهو يميل يمنة ويسرة يمنة ويسرة دون أن يحرك جناحيه ... يعلو... ينحني... يهزهز جناحيه قليلا ... يستريح وهو يحوم ... جناحاه دائما مبسوطتان ... يعلو... يعلو... فوق الربيع ... فوق النخيل ... فوق الجبال ... فوق السماء... فوق الشمس البيضاء بياض اللبن ...
كم اشتقت للبن! ...
-اللبن يطهر الجسم ... الحامض منه خاصة ...
هكذا يقول النادل للزبناء المتهالكين على الكراسي ...
-السكر والحلوى مفيدان للحنجرة أيضا ... يضيف من وراء منضدته البيضاء كقبر عظيم ... المقهى كله قبور ... قبور بيضاء ... قبور في شكل موائد حولها كراسي يتهالك عليها الأحياء من أهل المدينة .... يفتخر مالك المقهى بمقهاه ... " مقهى أحياء و أموات "... يطالبنا بالصمت:
-اششششش...!
الأمر الأبدي بالصمت يثير احتجاج الموتى تحت القبور المبنية بالحجر ... يثير قلق من حولي من الأحياء ... أنا الآن أتفهم توترهم نحن لا ننبس ببنت شفة حتى يطالبنا أحد بالصمت ... هذا ظلم !
يجيب مالك المقهى:
- أنا لا أظلم أحد ... كلامكم يعرض مقهاي للخطر ..يعلق المالك لوحة على الجدار قبالة الجميع:
"الرجاء من الزبناء الكرام عـــدم التدخين والكلام والصراخ حفاظا على الصالح العام".
ينفجر القبر الأول ... ينفجر الثاني ... الثالث... تثور ثائرة الأحياء و الأموات ... كل الزبناء... الموتى .. المجانين ..ماسحي الأحذية .. المومسات.. بائعي السجائر... المتسولين... شباب يستر عورته بشواهده الجامعية ... يستقيم الجميع... يجربون حناجرهم ... ينتفون لوحة الأمر و النهي عن الجدار ... يكسرونها ... يفتتونها يلقون بفتات الأمر بعيدا ... ينصتون للوحي للإلهام ... لأنشودة الخلود... لصوت عبد الرحمان المجذوب ... نجري في صخب وفوضى وراءه ... ندوس بالأقدام من يعترض طريقا ... نلتحق بالشاعر ... نتحلق حوله ... نرسم دائرة من الأجساد حوله ... نتزاحم ...نطيل الأعناق لنسمع المجذوب ينشد ملء حنجرته...
نضطرب إجلالا...
هذه النبوة ! ... هذا المنظر! ...
ننظر الى أسفل الجبل ...
أسفل سافلين ...
ننظر الى مدينة القصر ... مدينة القصور ...مدينة خالية من الحياة إلا من حركة أولئك الذين يسرعون لغلق نوافذ فيلاتهم و قصورهم ... ننظر الى وادي المخازن ... مياهه شفافة ... مياهه برتقالية ... حمراء ... قانية ... سوداء ... النهر يمتلئ سوادا... يمتلئ ... يمتلئ... سطح مياهه يعلو بإصرار نحو حاشية السد ... إننا ننتظر الفيضان الأخير... ننتظر الطوفان من على قمة جبل صرصر ... نعد لانفجار السد بجنون ... نعد لغرق سباستيان البورتقيز ... نعد لغرق الطاغوت... نلوح بالأيادي ... بالقمصان بالجلابيب ... نكبر ... نكبر ... نكبر...

الله أكبر

(..) (..)

الله أكبر

(... !) (طق!)

الله أكبر

(طق !) (طق!)

الله أ...

(طق!) (طق!)

... ...

(طق!) (طق!)

استيقظ عرقانا ... تكبيرات غامضة و بعيدة ترن في ذاكرتي على إيقاع الدق على الباب .

طق ! طق !
طق ! طق !

يشتد الدق على الباب ... أصيح:
-" انتظر ! "...
يهدأ الصداع لفترة .انتهز المهلة .اتفوه. اقرأ الشخبطات الجديدة على الحائط قرب السرير . اقترب منها أكثر. افرك عيني لأقرأ جيدا:

الشغل حق مضمون
الشغل شـ شـ الشغل
حق حـ حـ حق
مضمون ضـ ضـ مضمون

تنظيم السطور وتفكيك الحروف يذكرني بدروس الخط في المدارس الإبتدائية .هذا خط أخي الأصغر انه لا يثق في ذاكرته لهذا فهو دائما يدون كل ما يسمعه أو يدرسه ...حلمه هو أن تجعل منه دراسته معلما أو أستاذا . الخط المتموج يعكس رغبته في البقاء على السطر المفترض على الجدار. لا يخفى علي أبدا أنه بدل جهدا كبيرا ليكتب كل تلك الكلمات عالية لهذا الحد كي يقنعني أنه كبر فعلا.
يعود الطرق على الباب، من جديد.
أقفز من السرير. أتعثر في سروالي .أتدارك نفسي من السقوط.أجد نفسي أمام الباب. أفتحها على رجل في بذلة مهنية. أفرك عيني: ساعي البريد.
يمد لي ساعي البريد رسالة قائلا:
- " رسالة مضمونة. وقع هنا ".
يمد لي السجل أشخبط توقيعي تحت أصبعه يسحب سجله ثم ينصرف.
أزن الرسالة بيدي. هي في مثل ثقل الرسائل المضمونة التي ألفت تلقيها. لقد نميت حاستي السادسة جيدا خاصة فيما يتعلق بالرسائل المضمونة . إنني أستطيع التكهن بمحتوياتها دون الحاجة الى فتحها: إنها لا تحتوي سوى على وثائقي المرفوضة في مباراة شغل.
رميت الرسالة داخل البيت . هاهي تسبح في فضاء البيت، ترتطم بالجدار وتترنح ساقطة أسفل الدرس الطفولي.
الشمس ثابتة في وسط السماء. ساعي البريد، مثل جني، يزحف نحو أبواب الجيران، بلا ظل . يدنو من الباب الأخرى، محملا بالسجلات و كسوة العمل و محفظة الرسائل. يطرق الباب من جديد ثم ينطق:
-" افتح يا سمسم! ".
ينظر ساعي البريد باتجاهي. ينظر الى عيني بإلحاح. ملامحه تقاوم ابتسامة قوية. تغلبه أخيرا. يبتسم.

سنة 1991

الحياة بملامح مجرم

"ما الإنسان الذي يكرهه الشعب كره الكلاب للذئب إلا صاحب الفكر الحر عدو القيود الذي لا يستعبد ولا يلذ له إلا ارتياد الغاب".

فريديريك نيتشه،
هكذا تكلم زرادشت
(الترجمة العربية) ، ص. 130

قد يحدث لك هذا غالبا في دار السينما حين تدخل القاعة المظلمة متأخرا وتجد الشريط في منتصفه والممثلون يتحركون ويتحدثون عن أشياء فاتك أولها...

نقر المطرقة على المنصة يطلب الصمت من الجمهور المحتشد داخل قاعة تشبه قاعات المحاكم، وتندهش حين تدرك أن صاحب المطرقة يخاطبك من دون الحاضرين :

- أنت، ضمن مجموعة اليوم، تنتظر إدانة قبلية لاحتمال ارتكابك جرائم بعدية، وهو، كما تعلم، إجراء وقائي عادي ومحلي مثل التقميط والختان والـ ... وكما تعلم، فمحلية تشريعنا تسهر على الوقاية القبلية من خطر إيقاظ الفتنة النائمة في الرؤوس بالعقاب القبلي حتى يتعرف كل على دوره وحدوده.

وتنتبه فجأة فتجد نفسك أنت السينما وأنت الشريط وأنت الظلام الذي يذيب فرديات الحاضرين ليجعل منهم متلقيا واحدا.

"الشهود، من فضلكم !"

شهادة المنجم :

أقسم ألا أقول غير الحقيقة.

انظروا،يا سادة، إلى أهم خطوط كفه .انظروا إلى خط الرأس .إنه يبدأ من خارج خط الحياة وينحدر نحو الأسفل بشكل مخيف ينذر بتحرر يصل حد التهور واقتراف أبشع الجرائم.

يكفي،يا سادة، أن تتصوروا كائنا لا يوجد على كفه أثر لخط القلب :_البرود التام...ومع ذلك فسيعمر طويلا لأن خط الحياة على كفه طويل، واضح، بدون كسور أو شذوذ...

كما أن اسم المتهم يدل بوضوح على برجه. و هو برج كبار المجرمين والقتلة، ومميزات مواليد هذا البرج: الغموض، التكتم الشديد، التصلب في المواقف، العنادة، الميل للوحدة القاتلة...

مجمل القول، خاصية هؤلاء المواليد هي الإنفلات من العقد والتدحرج بعيدا عن الخيط...

شهـادة الأب :

أقسم ألا أقول سوى الحقيقة.

أنا الأب وهو الإبن. لكن علاقتنا غير طبيعية منذ البداية. منذ سن رضـاعته وهو يكرهني . هو يراني سلطة تحد من حريته في البيت ولذلك سجن ذاته في غرفة جدرانها ملطخة بأصباغ متداخلة وخطوط غير ذات معنى تختفي في بعض الجهات من الجدار تحت صور حيوانات مقتصة من مجلات ملونة.

شهادة صديق الطفولة :

أقسم إلا أقول إلا الحقيقة.

لقد كان المتهم زميلا من زملاء المدرسة. وأذكر أنه كان التلميذ الوحيد في الفصل الذي يرتدي وزرة بيضاء مخالفا اللون الرسمي لوزرة المدرسة : الأسود. كما كان يرفض بنفس العنادة نقل نماذج الخط والرسم التي يسطرها المعلم على السبورة ولذلك كانت نقطته عند التقويم دائما من أسفل سلم التنقيط.

شهادة النظاراتى :

أقسم ألا أقول غير الحقيقة.

ولكن لنضع النقط على الحروف، أيها السادة. فاللون الأبيض الذي يعشقه المتهم حتى الجنون ليس لونا بسيطا كما يبدو. إن دلالاته أكبر. إن الأبيض هو نتيجة مقاومة الكتلة للأشعة الضوئية المتسلطة عليها. الأبيض، ياسادة، هو لون المقاومة، لون الرفض، والإنسان حين يختار لونا من الألوان فهو يختار لغة بصرية للتعبير عن ذاته ورغباته.

شهادة شرطى المرور:

أقسم ألا أقول غير الحقيقة.

هذا الشاب متى مر أمامي، كان وحيدا وهادئا مهما تسارعت المشاهد حواليه ومهما عظمت حركة المرور.دائما هادئ بإيقاع تنفسي ثابت: إثنان – أربعة – إثنان – أربعة، وهي أولى مبادئ التنفس في رياضة خارقة تقوي الإنسان بهدف تحكمه في جسده وروحه...

شهادة موظف المكتبة البلدية :

أقسم ألا أقول إلا الحقيقة.

انظروا ! لدي لائحة الكتب التي سحبها المتهم من رفوف المكتبة البلدية خلال هذا الشهر. ففي الأسبوع الأول من هذا الشهر، قرأ كتابا في الفلسفة وأخر في الدين. وفي الأسبوع الثاني، كتابا في العلوم وآخر في الأسطورة. وفي الأسبوع الثالث، ديوان شعر ووثائق سياسية...

أحاول أن أتصور، يا سادة، شخصية إنسانية تقرأ في الآن ذاته للأنبياء والملاحدة، للجبابرة والمنبوذين...أحاول أن أتصور، ولكني لا أتصور شيئا.

<u>شهادة رب عمل :</u>

أقسم ألا أقول سوى الحقيقة .

أنا، يا سادة، لا يخدعني تنفسه ولا هدوؤه... ولذلك أرفض باستمرار طلباته للعمل عندي. فكلماته تامة الحروف والنقط والحركات دون تشطيب وبخط غليظ مفعم بثقة مبالغ فيها. لكن الحروف تنقصها المرونة والاستدارة الكافية : هي مجرد مثلثات ومربعات حادة الزوايا تعكس شخصية غير مرنة. إنما دقته المفرطة في رسم الحروف تعبر عن خوفه من انفلات أشياء من يده وانكشاف أمره. إنه يتستر على شيء ما. أما ما هو هذا الشيء، فهذا ما لا أعرفه يا سادة.

<u>شهادة الفوتوغرافي :</u>

أقسم ألا أقول إلا الحقيقة.

في كـــــــــل الصور التي أخذتها له، أيها السادة، ستجدون نفس الديكور : سرير ومنضدة صغيرة تحيط بهما جدران ملطخة بالألوان والخطوط، وجدران مرقطة بصور ملونة لذئاب مختلفة الأحجام تفترس خرفانا مضرعة بالدماء. ذئب هنا، ذئب هناك... إنه يرى نفسه ذئبا متوحشا ووحيدا ولذلك فهو يفترس الجماعية في الحياة القطيعية للخرفان.

<u>نص الحكم :</u>

بناء على تصريحات الشهود،

وبناء على...

وعلى...

فقد تمت إدانة المتهم، ضمن مجموعة اليوم، بالسجن المؤبد مع وقف التنفيذ، ورفعت الجلسة.

سنة 1996

هل كان سقراط مجرما ؟

كان سقراط ينتمي بالولادة، إلى أكثر الدهماء دونية : كان سقراط رجل الشعب. نعرف، ويمكن كذلك أن نلاحظ كم كان سمجا. لكن القبح، الذي كان في حد ذاته اعتراضا، كان بالنسبة للإغريق مبرر رفض، تقريبا. من جهة أخرى، هل كان سقراط إغريقيا؟ غالبا ما تكون السماجة تعبيرا عن تهجين، عن نمو معاق بفعل التهجين. في حالات أخرى تكون شهادة على تطور منحرف. الإناسيون من بين علماء الإجرام يقولون لنا إن المجرم المميز سمج. بل المجرم منحط. هل كان سقراط مجرما مميزا؟ على أية حال، لن يكون ذلك مناقضا لهذا الحكم الشهير الذي نطق به فراس، ووجده أصدقاء سقراط جارحا. خلال مروره بأثينا، قال غريب خبير بالوجوه لسقراط، مباشرة، بأنه قبيح وبأنه ينطوي على أقبح العيوب وأسوأ الشهوات. وقد اكتفى سقراط بأن أجاب : "**لشد ما تعرفني جيدا !**"

فريديريك نيتشه
"أفول الأصنام"
(الترجمة العربية)
ص 20/19

النصوص

السيرة الذاتية لمحمد سعيد الريحاني

- حاصل على شهادة **الماستر** في **الترجمة والتواصل والصحافة** من **مدرسة الملك فهد العليا للترجمة** بطنجة/المغرب (تابعة **لجامعة عبد الملك السعدي**، تطوان/المغرب)، و على شهادة **الماستر** في **الكتابة الإبداعية** من كلية الفنون والعلوم الاجتماعية **بجامعة لانكستر** بالمملكة المتحدة، وعلى شهادة **الإجازة في الأدب الإنجليزي** من كلية الآداب والعلوم الإنسانية **بجامعة عبد الملك السعدي**، تطوان/المغرب.

- عضو "**اتحاد كتاب المغرب**"منذ 2008، وعضو هيأة تحرير "**مجلة كتابات إفريقية**" الأنغلوفونية ***African Writing Magazine*** الصادرة من مدينة بورنموث ***Bournemouth*** جنوب **إنجلترة** منذ 2010، وعضو الهيئة الاستشارية **للتقرير العربي للتنمية الثقافية** الذي تصدره **مؤسسة الفكر العربي** من **بيروت** منذ 2010**...**



صدر له باللغة العربية:
- **"الاسم المغربي وإرادة التفرد"**، دراسة سيميائية للإسم الفردي **(**2001**)**
- **"في انتظار الصباح"** ، مجموعة قصصية **(**2003**)**
- **"موسم الهجرة إلى أي مكان"**، مجموعة قصصية **(**2006**)**
- **"الحاءات الثلاث"، أنطولوجيا القصة المغربية الجديدة** (حاء **الحلم**، 2006**)**
- **"الحاءات الثلاث"، أنطولوجيا القصة المغربية الجديدة** (حاء **الحب**، 2007**)**
- **"الحاءات الثلاث"، أنطولوجيا القصة المغربية الجديدة** (حاء **الحرية**، 2008**)**
- **"تاريخ التلاعب بالامتحانات المهنية في المغرب"** (الجزء **الأول**، 2009**)**
- **"تاريخ التلاعب بالامتحانات المهنية في المغرب"** (الجزء **الثاني**، 2011**)**
- **"موت المؤلف"**، مجموعة قصصية **(**2010**)**
- "**حوار جيلين**" (مجموعة قصصية مشتركة مع القاص المغربي **إدريس الصغير**) 2011
- **"عَدُوُّ الشَّمْسِ، البَهْلَوَانُ الذِي صَارَ وَحْشاً"**، **أول** رواية عن **الثورة الليبية** (2012)
- **"وراء كل عظيم أقزام"**، مجموعة قصصية **(**2012**)**
- **"لا للعنف"**، مجموعة قصصية **(**2014**)**، منشورات **مكتبة سلمى** بتطوان/المغرب
- "**حاء الحرية**" (خمسون قصة قصيرة جدا)، **(**2014**)**، منشورات **وزارة الثقافة المغربية** بالرباط/المغرب
- "**العودة إلى البراءة**"، مجموعة قصصية (2015)، منشورات **اتحاد كتاب المغرب** بالرباط/المغرب.
- "**صدقية الشعار الإعلامي العربي من خلال بناء الصورة الإخبارية**" (شعار قناة الجزيرة، "**الرأي والرأي الآخر**"، نموذجا)، 2015.

وصدر له باللغة الإنجليزية:

- ***Waiting for the Morning*** *(Short Stories)* Bloomington (Indiana/USA): Xlibris, 2013. **ISBN:** 978-1493104093

كما استضافته عدة كتب **للحوار**:
- **أنس الفيلالي**، **"رَيْحَانِيَاتٌ"** (سلسلةُ حوارات شاملة منْ **أربعينَ** لقاءً صحفياً مع **محمد سعيد الريحاني**)، عمان/الأردن: **دار الصايل للنشر**، الطبعة الأولى، 2012 (الطبعة المغربية: **مكتبة سلمى الثقافية**، تطوان/المغرب، 2015).
- كتاب جماعي، **"مع الريحاني في خلوته"** **(**ثلاثون حوارا في الفن والثقافة والأدب مع **محمد سعيد الريحاني** أجراها أدباء ونقاد وإعلاميون عرب) تطوان/المغرب: **مكتبة سلمى الثقافية**، الطبعة الأولى، 2015.

أشرف على **الترجمة الإنجليزية** للنصوص المكونة **للقسم المغربي** في عدة أنطولوجيات نشرتها دور نشر "**ريد سيه بريس**" و"**أفريكا وورلد بريس**" و"**مالت هاوس**"**:**

- **"صوت الأجيال: مختارات من القصة الإفريقية المعاصرة"**، ***Speaking for the Generations: An Anthology of Contemporary African Short Stories*** (ثمانية نصوص مترجمة من اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية لثمانية قصاصين مغاربة)، 2010.
- **"أنطولوجيا الشعر الإفريقي الجديد"**، ***We Have Crossed Many Rivers: New Poetry from Africa*** (خمس قصائد مترجمة من اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية لخمسة شعراء مغاربة)، 2012...

له عدة **دراسات في الإعلام**، قيد الإعداد للطبع:
- **"مساهمة الإعلام في حوار الحضارات: الأسباب والوظائف والغايات"**.
- **"الصورة الإخبارية في إعلامي الحداثة وما بعد الحداثة"** (دراسة مقارنة للأداء الإعلامي لقنوات **السي إن إن، أورونيوز، فرانس 24** و**الجزيرة**).